ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 01 (2021) ص: 108 – 117

البحر: الفضاء وديناميّة الحضور في رواية خويا دحمان لمرزاق بقطاش

Sea: space and dynamic presence In Khoya Dahman's novel by Marzak Bakttash

د. هنية جوادي

جامعة محمد خيضر بسكرة- الجزائر -

hania.djouadi@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
12 نوفمبر 2020
تاريخ القبول:
27 ديسمبر 2020

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الرواية
- ✓ البطل
- ✓ التداعي
- ✓ الدلالة

الملخص:

تتناول الدراسة الحضور الدّينامي لفضاء البحر في رواية خويا دحمان للكاتب الجزائري مرزاق بقطاش، وتسعى إلى إبراز تقاطعاته مع مكوّنات الرّواية، وكشف تأثيراته في شخصية البطل، وكيف حفر فيها وأضْفى عليها من صفاته وخصائصه، وقد بَدا البحر في الرواية فضاء خصبا، يمدّ المتخيّل بما لا حدود له من الموضوعات والرموز. يعزّز حضورَه الفعّال، تدفقُ تيّار الوعي، وتوظيف المنولوج الدّاخلي، وأسلوب المناجاة، والاسترجاع، والحلم... وهي من أهم الأساليب التي جعلت منه فضاء يزخر بالدّلالة: الوجودية والتّاريخية والاجتماعية والأيديولوجية والنّفسية والفنيّة في الرواية موضوع الدراسة.

Article info

Received
12/11/2020
Accepted
27/12/2020

Keywords:
- ✓ *novel, hero*
- ✓ *monologue*
- ✓ *significance*

Abstract :

The study deals with the dynamic presence of the sea space in the novel by Khoya Dahmane by the Algerian writer Merzak Bakttache, and seeks to highlight its intersections with the components of the novel, and reveal its effects on the character of the hero, and how he engraved in it and gave it his qualities and characteristics. It has limits from themes and icons. Its active presence enhances the flow of the stream of consciousness, employing the inner view, the method of communion, retrieval, and dreaming ... which are among the most important methods that made it a space full of significance: existential, psychological, artistic… in the novel.

1. مقدمة

يعد البحر أبرز قوى الكون عظمة ومهابة، وأشدّها اتّساعا وامتدادا، وأكثرها سحرا وعطاء. والبحر ذو اتّصال وثيق بجوهر النّفس البشرية، ونزعاتها وأحلامها وآمالها وتأملاتها. فقد غاص الإنسان في أعماقه السّحيقة، وركب أموجه المضطربة الصاخبة وارتاد مجاهله وأخطاره، رغبةً في المغامرة والاكتشاف، ونعم بالراحة والسّكينة على رمال سواحله الممتدة في الأصقاع... وهذه الأهمية جعلته يشغل عناية المبدعين أيضا، ويكتسي أهمّيّة كبيرة في إبداعاتهم الفنيّة والأدبية ـ منذ القديم ـ ولا يزال يملأ كيانهم إلى يومنا هذا، ويستحوذ على اهتمامهم، بما يستميز به من خصوصية جمالية عزّ نظيرها، وراح البحر يشكّل لدى ثلّة من الروائيين العرب المعاصرين، هاجسا من هواجس الكتابة الروائية، ومرآة تعكس تجارب الحياة، وتراجيديا الواقع الإنساني المعيش.

وقد حفزتنا أهمية فضاء البحر في بناء المتخيل الروائي وتكثيف أبعاده الدلالية إلى مقاربة موضوعه في روايةخويا دحمان للكاتب الجزائري مرزاق بقطاش، التي تولي مساحة نصية كبيرة من تداعيات ساردها للبحرومعطياته، وأشيائه، وعلاقاته، حيث تتراجع الحكاية لصالح هذا الأفق الرمزي، فيتجلى للقارئ مكوّنا معرفياوفضاء جماليا، يشع بالدلالة، كما يتراءى عمقا نفسيا وإنسانيا، وقناعا لأفكار البطل (دحمان)، الذي اعتنقالبّحر، وتوحّد معه، تدفعه إليه رغبة جامحة في تحقيق ذاته وتجذير كيانه من خلال تماهيه معه. لهذا كانت تجربة السارد مع البحر تجربة مثمرة على مستوى تأويل الرواية، والرّبط بين سياقها الداخلي والعالم الخارجي، وينبثق استثمارُ البحر في الروايةَ، من العلاقة الوطيدة التي ينسجها السارد مع عالم البحر، فهو يتخذ منه قناعا للتعبير عن قضايا مصيرية، طالما شغلت الذات الجزائرية وأثارت جدالا كبيرا، كقضية الهوّية الوطنية والشّرعية التّاريخية والقيّم الثورية، والعدالة الاجتماعية، وقضية الحريات ومستقبل العلاقة بالآخر(الفرنسي)... تستقطب الرواية كل هذه الموضوعات، ويعمد السارد إلى بلورتها ضمن ثلاثة أسئلة جادة يطرحها على القارئ: من أين جئنا؟ من نحن؟ إلى أين المصير؟ وهي انشغالات تتعلق بماضي الأنا وحاضرها ومستقبلها.

ومن منطلق فاعلية فضاء البحر وتداعياته على مكونات المتخيل الروائي، وبخاصة عنصر الشخصية المحورية، تأتي هذه الدراسة للإجابة عن جملة من التساؤلات أبرزها: ما أهم الدلالات التي يضطلع بها فضاء البحر في الرواية موضوع الدراسة؟ وما دوره في تجسيد انفتاحها الدلالي؟ وما علاقته بشخصية البطل؟ وهل كان أداة فعّالة لتجسيد أبعاد الشّخصية الروائية؟ ما علاقته بالمتخيّل؟ وما أهمّيّة النصوص الموازية كالعنوان والفاتحة النصية في إبراز جماليات هذا الفضاء وإثراء دلالاته؟ وما دور الأساليب السردية المعتمدة في الرواية كأسلوب تيار الوعي المونولوج الداخلي والمناجاة... في الكشف عن أبعاده الفنية والجمالية؟

2. تقديم مضمون الرواية

خويا دحمان رواية للكاتب الجزائري مرزاق بقطاش، صدرت عن دار القصبة للنشر والتوزيع، أنهى كتابتها كما هو مثبت في صفحتها الأخيرة سنة 1994. يتولى سرد أحداثها بطل الرواية دحمان، مستعملا المنولوج الداخلي، الذي يكشف من خلاله عن المحتوى الذّهني والنّفسي لهذه الشخصية، حيث يشكّل السرد في هذه الرواية حالة حوارية داخلية، يحدِّث فيها البطلُ نفسَه، بلغة ذات بعد أحادي، تصدر من طرفه، وتعدُّ مصدرا رئيسا تنبثق منه الأحداث والشخصيات... وكان حافز التّدفق السردي في الرواية: رسالة تلقاها السارد من ابنه محمد المغترب في فرنسا، من أجل الدراسة، تضمّنت (رسالة الابن) عبارة: سأجلبها معي، التي بعثت الحيرة في نفس الأب، وأدخلته

في دوامة من القلق والارتياب. وقادته إلى قراءة الرسالة عدة مرات، ولكن دون جدوى... فراح يسأل نفسه عن تلك التي سيجلبها معه من ديار الغربة: هل هي امرأة فرنسية، يكون تزوجها هناك في ديار الغربة؟ لكنه يحاول إقناع نفسه، بأن ابنه الذي ضحى من أجله كل هذه التضحيات الجسام، وأحسن تربيته وتعليمه: لن يجلب معه لا فرنسية ولا إنجليزية ولا إيطالية.

وحين يستبد بالسارد هاجسُ الأسئلة والخوف من المجهول، يهرب من قلق التّوتّر والانتظار، ويلوذ إلى: استرجاع طفولته، وتستدعي ذاكرته المتعبة رحلة كفاحه في البحر من أجل تأمين لقمة العيش لوالدته. بعد وفاة والده . كما يسترجع تجربته النضالية . وهو شاب . رفقة أبناء القصبة، وتجربة سجنه الذي ذاق فيه ألوان العذاب، كغيره من الثّوار والمناضلين. ويستعيد أيضا رحلته البحرية التي قادته إلى أصقاع العالم بحثا عن فرصة عمل تؤمن له حياة كريمة. لم يوفرها له وطنه الذي ضحى من أجله بحياته.

إضافة إلى هذه الاسترجاعات، التي انطوت على كثير من المعاناة والآلام، تنفتح ذاكرة البطل على زمن الاستقلال الذي كان كما يبرز السارد، حلبة لتصفية كثير من الحسابات الضيقة بين الإخوة الفرقاء، وقد أدت هذه الصراعات إلى تصدع أحلام الجزائريين، وبخاصة البسطاء منهم كالصيادين والعمال الحرفيين الذين عانوا البيروقراطية، والتعسف الإداري. ومصادرة أرزاقهم.

ومن ثم فالرواية تتوسل الذاتي الخاص، سيرة البحار الشعبي البسيط دحمان، (البطل الإيجابي) الذي استطاع تحدي الواقع بوعي وحزم، وشق طريقه بإرادة متجاوزا كل المصاعب والعقبات التي وقفت في طريقه كاليتم والفقر ورجال البحر من المهربين، تعسف المستعمر، مضايقات زمن الاستقلال... للتعبير عن أزمة المجتمع الجزائري، وبحث جذورها، وصراعاتها وعلاقاتها المتشابكة. ومن ثم فالرواية تسعى من خلال اعتمادها على الذاكرة الشعبية إلى تعرية الماضي الممتد في الحاضر، ومحاولة تصحيح مساره، ورأب صدوعه، بعدّه نواة المستقبل وأرضيته التي ينهض عليها، ويتأسس على خلفيتها ولن يتأتى بناء المستقبل الواعد في نظر السارد إلا بالعودة إلى القيَّم الروحية والوطنية للذات الجزائرية. وتحمل شخصية الابن بذرة هذا المستقبل المنشود، تستشرفه الرواية، قبل إعلان نهايتها بعودته(الابن) الغانمة على متن سيارة فارهة، ترمز إلى مدنية الغرب والأهم من هذا، عودته متسلحا بالعلم، حاملا شهادة علمية طالما انتظرها والده، وقد كانت عودته بمفرده دون أن يصطحب معه امرأة غربية، مفاجأة سارة، أثلجت قلب والده، وأزاحت هما ظل يراوده، وأكدت له أن كفاحه من أجل وحيده لم يذهب سدى. وقد أعادته هذه المفاجأة السارة، إلى الواقع بعد أن اطمأن على مستقبل ابنه، وتأكد بأنه بذرة صالحة أصيلة، تقف لتعبر عن مستقبل جيل بأكمله، جيل الحرية والاستقلال المتسلح بالعلم والمعرفة، الذي بإمكانه أن يحمل مشعل الثورة، ويحافظ على قيّمها وثوابتها.

3. البحر: امتدادات الفضاء ومدارات الدلالة

وبالنسبة لحضور فضاء البحر في رواية خويا دحمان، فإنه يبرز بداءة من عتبة غلافها، الذي جاء إخراجه الفني منسجما مع النص القابع خلفه؛ ويمثل الغلاف لوحة للرسام العالمي شارل أورتيفا، موسومة بـ: بحرية، وهي لوحة فنية تتوشَّى بلون البحر، وتحمل بعض معطياته: أمواج، قوارب، أشرعة بحرية، ألوان، ضباب، قوارب صيد... وتلفت هذه اللوحة الفنية انتباه القارئ، وتحفّزه على الإقبال على قراءة نص الرواية. في حين يشكل خطاب البداية أو الفاتحة النصية في الرواية "الحد الذي يفترض فيه أنّه يعتبر جسرا ما بين لحظتين أساسيتين:

الصمت والكلام" (أشهبون، 2013، صفحة 34)، فافتتاحية الرواية لها أهميتها في البنية الفنية للنص بعدها "أولى التقنيات الفنية الداخلية التي تكثّف النص، وتدل عليه، وهي العامل المباشر الذي يمكّن متلقي النص من تلمس محتواه، نظرا للصلة الموضوعية بينها وبين ذلك المحتوى الذي قدمت فيه." (مرشد أحمد، صفحة 62). هذا، وتنبثق أهمية الفاتحة النصية، بصفتها إحدى مراكز النص الاستراتيجية الحاسمة التي تفتح السبيل لما يتلو النص، وتسوّغ النّص وتقدّم إشارات أجناسية وأسلوبية، وتبني عالما تخييليا، وتوفّر معلومات أكثر عن الحكاية المروية (حسين، 2008، صفحة 52).

ورواية خويا دحمان، تنفتح على البحر، وتسوق القارئ إلى فضائه الواسع، فمنذ أسطرها الافتتاحية الأولى تنقلنا الرواية إلى شواطئ هذا الفضاء (الملاذ)، الممتد في أعماق السارد (الشخصية الرئيسة في الرواية) من خلال تساؤله عن سر العلاقة المكينة بينه وبين البحر: "إيه يا خويا دحمان، أنت لا تتعب من البحر أبدا... عندما تستقبل يوما جديدا، تشعر بالحاجة إلى أن تنزل صوب زرقته الطاغية، لتقول صباح الخير يا سيدي بحرون. كيف حالك اليوم..." (بقطاش، صفحة 03).

واضطلاع البحر بالسيادة والمكانة الرفيعة في وعي البطل (دحمان)، لم يأت من فراغ؛ فهو جدير بهذه المكانة، لأنه رمز الحياة وسبب الوجود، "قد يكون يستمد قابليته للتقديس من كونه يقدّم للبشر الذين هم بالضرورة كائنات أرضية إطارا حياتيا بديلا، يتيح لهم التسامي فوق شرطهم الاجتماعي البشري كمخلوقات مجبولة من التراب، مادة الأرض، ومنذورة له مبدأ ومعادا؟" (طرابيشي، 1995، صفحة 140) ويبقى الماء على مر الزّمن عنصرا حياتيا، يتمتّع بقدرة فائقة على إعادة إحياء الكون، والإنسان بصفة مستمرة. ومن هنا فهو جدير بالتقديس، على غرار ما كان ينظر إليه في الأساطير القديمة. وهذا سرّ تقديس ووفاء السارد له، ومواكبته النزول إليه، وكأن الأمر تواصل دائم والتحام بينهما.

ولما كان البحر هو مانح الحياة والوجود، فإنّه يسْكن السارد، ويمتلك كيانه، ويرتقي في نظره إلى أعلى المقامات، يناجيه بأجلّ النّعوت وأعظم الصّفات ممّا يشعره بالسّعادة والرّاحة: " آه، يا سيدي بحرون. آه يا سيدي بحرون. لكم تحب ترديد هذه الكلمات...تنطوي على معنى خاص لا يفهمه إلا القليلون. إنك حينئذ تكون أشبه بذلك الدرويش الذي يدخل الحلبة بمفرده، ويدور حول نفسه، وينتظر أن يفهم النّاس شطحاته وتهويماته، أنت أيضا درويش، ولكن من نوع آخر. آه يا سيدي بحرون (نفسه، صفحة 10)، فالبطل في هذا المقطع السردي يغلّف حبّه للبّحر بهالة من الوجد الصوفي، والتّسامي الوجداني، يخال نفسه درويشا يراقص أمواج البّحر العاتية، رغبة في تخليص روحه من أوشاب الحياة، والسّمو بها إلى عوالم بديلة. وتعالق البحر مع السارد، وهيمنته على مشاعره وأحاسيسه، جعل منه باعثا لتجدد حياة لتّجدد حياة السارد، فمع إشراقة كل يوم جديد، تقوده قدماه المتعبتان إلى البحر، يجدد العهد معه ومع الحياة، ويستمد من فيض نعمه وسر عظمته، طاقة حياة صباحه الجديد.

وقد ضاعف هذا التناغم الروحي بين السارد والبّحر من ارتباطهما وتعانقهما وهذا ما يحاول أن يكشفه السارد من خلال تساؤلاته التي لا تكفّ عن طرح نفسها على مدار الحكاية: "ما الفرق إذن بينك وبين حبة من المحار، أو قوقعة من القواقع البّحرية" (نفسه، نفس الصفحة). فهذه العلاقة العضوية، جعلت البطل مشدودا إلى زرقة البحر منجذبا إلى رائحة ملوحته، لا يقوى على الابتعاد عنه، فسحره

المغناطيسي لا يكف عن التغلغل في أعماق ذاته، والحفر في كينونته، حيث يتحوّل البحر إلى ما يشبه القدر أو المكتوب، يستوطن الذات، ويرتبط بكفاحها، وصراعها الوجودي من أجل البقاء. وهذا ما يفصح عنه السارد: " لكأنه مكتوب على جبينك أن تشقى وتكدّ، وتصابح البحر وتماسيه، وإلاّ فقدت شهيّة العيش، وسقط من حسابك، حياتك هذه. شيء لا تقوى على الاستغناء عنه" (نفسه، نفس الصفحة)، ومعانقة السارد للبحر، جعلته لا يكاد يتركه إلاّ ليعود إليه ملبيا نداءه، فهما متلازمان، يسكن كل منهما الآخر، حيث يورد في هذا السياق:

"البحر قد سكنك، نال منك أي منال، خاصة منه ذلك البحر العريض الواسع الذي يقال له المحيط، حيث تسنى لك أن تبقى لحظات رائعة مع نفسك، تناجي الله. لذلك تاقت نفسك، أيّها السندباد الأهوج (نفسه، صفحة 81). تسمح سكينة البحر وامتداه للسارد بالتّأمل ومناجاة الله، لأنّه الوحيد الذي يفهمه، ويشعره بالخشوع والرّاحة والبحر وحده . من يسمع شكواه وأنينه، ويحتضن معاناته وآلامه، فيكفيه قساوة الاغتراب، لذا نجده يعمد في كثير من المقاطع السردية إلى أَنْسَنَتِهِ، ومنحه صفات الإنسان وطباعه: "البحر يناديك، يجتذبك إليه تماما مثلما انجذب مركب السندباد إلى بعض الجزر المغناطيسية. وما كان أحد يدري ما يصطخب في نفسك. أنت بالذات كنت جاهلا أمر تلك القوة المغناطيسية العجيبة" (نفسه، صفحة 91-99). فالأمكنة الفاعلة المؤثرة . كما هو معلوم . تسلب الشخصية إرادتها، وتجعلها رهْن أمرها، وطوع إشارتها. تأسرها، وتحفر في داخلها آثارا عميقة، لا يمحوها الزمن. ولا شك أن "انحفارات المكان في حياة الشخصية، تستغرق المستويات البيولوجية والنفسية والاجتماعية." (حسين، 2000، صفحة 114) حيث "يفيض المكان على الكيان، لينعكس بأشيائه فيه، ويحتّم التفافه حول ذاته تبعا لما أسماه باشلار (التكوُّر)." (الكيلاني، 2009، صفحة 52).

وتحسن الإشارة في هذا الصدد إلى أن المبدع حين" يؤنسن تجليات العالم الخارجي، ويدخلها إلى عمله الفني، ويدعها تقوم بدورها الإنساني الجديد، لتسهم في خلق المناخ العام الذي يطمح أن يحققه، وليجعلها تتجاور مع الإنسان ومشاعره وأفكاره، كي تشاركه المعاناة والقهر والفرح في الحياة، وتجيء هذه المجاورة نتيجة لحاجة ذاتية وفنية تسعى إلى تفسير الأحداث تفسيرا داخليا متميزا، وتصوير الحياة تصويرا خلاقا برؤية جديدة تتسم بالشمولية والإنسانية المطلقة" (مرشد، 2003، صفحة 08)، ولعل هذا ما تجسد في الرواية التي بين أيدينا، فأنسنة السارد للبحر جعلته يبدو في عين القارئ، أكثر عمقا وجمالا و أشد حيوية وإنسانية، لأنه يعكس في جوهره رؤية الروائي لإنسانية الكون ككل. ولعلاقة الإنسان به.

ولا غرو أن التّشبث بالمكان والتّماهي معه، هو الذي يصنع تميُّز الشخصية الروائية، ويكرّس اختلافها عن غيرها من الشخصيات، وهذا ما أفصح عنه دحمان في أحد حواراته: "أحالوك على التّقاعد، فلمَ لا تقتدي بأولئك الذين عملوا الدّهر كلّه في المرسى وفي أرباضه، وفي عرض البحر. يلبس الواحد منهم اللباس الصيني الأزرق، ويضع على رأسه طاقية من الصوف أو شاشية حمراء، وينزل إلى الشارع العريض المطل على خليج الجزائر، ليتشمَّم رائحة البحر مزهوا مرتاحا، وإن بدا في وقفته ومشيته ما يوحي بأنه يريد الأخذ بثأره من البحر بعد عشرة طويلة مضنية. ما أشد ما تختلف عن أمثال أولئك الناس" (بقطاش، صفحة 03) والبحر هنا يحدد حركة السارد، ويتحكم في

طباعه، وسلوكياته، وممارساته اليومية، ويجسّد حقيقته، وتميّزه عن الشخصيات الأخرى التي يحكي عنها. فـ"حياة الشخصية تفسّرها طبيعة المكان الذي يرتبط بها" (سيزا، 1985، صفحة 115)، ويرسم صورتها في أذهاننا.

وعلاقة البطل بالبحر متجذرة، تعود إلى مرحلة طفولته؛ فقد ورث حب البحر عن والده، الذي كان كما يحكي عنه بحارا "يعمل في المرسى، ويَحدُث له أن يجد بين الوقت والآخر سفينة، فينطلق للعمل على متنها، ولا يعود إلى الدار إلا بعد مضي شهور عديدة... يوم أو يومان في الدار، أما بقية الوقت فهو في البحر." (نفسه، صفحة 17)، وهكذا دواليك إلى أن غابت أخباره بعد آخر رحلة، وانتهت علاقته مع البحر لتمتد من جديد في علاقة ابنه مع هذا الفضاء. ولعل غياب الأب أو ضياعه بهذه الطريقة، هو الذي عمق شعور البطل بالبحر، وكثف ارتباطه به،" والدك، عليه رحمة الله، نقل إليك عدوى البحر، وزرعها في دمك. والدليل على ذلك أنّك عندما تنزل إلى المرسى، وتقع عيناك على سفينة راسية أو خارجة من خليج الجزائر، تشعر بالدّم مندفعا في شرايين رقبتك، وتتمنّى لوكنت على ظهرها،" (نفسه، صفحة 78-79) وبذلك يكون الانجذاب إلى عالم البحر، وأشيائه، شكلا من أشكال استعادة الماضي الجميل والأبوة المفقودة في أغمار البحر.

وترتبط المدينة بدلالات النّبذ، لأنّها تلفظ السارد إلى خارجها، إلى فضاء البحر، فقد بحث دحمان في فضائها عن مصدر رزق، يقيه الحاجة، لكنَّه فشل، وأدرك في نهاية المطاف، بعد أن ضاقت به كل سبل المدينة أن لا مخرجا من هذا المأزق الوجودي إلا بالالتجاء إلى البحر، لذا راح يستشرف خلاصَه في فضائه المتّسع حيث يورد:" أبحرت إذن في مدينتك هذه بحثا عن حرفة تتعلمها، ولكن الأبواب كانت مغلقة دونك...أحببت أن تصير كهربائيا أو ميكانيكيا، وها أنت تصير صيادا في البحر، تنسج الشبكة بيديك هاتين وتلقيها في البحر، تصلح زورقك، وتضبط محركه دون مساعدة من أحد...أدركت أن مستقبلك في البحر وليس في مكان سواه" (نفسه، صفحة 34-35) وأن "خليج الجزائر كله كان قدامك يناديك من أجل أن تحصل على قوتك وقوت والدتك وأختك" (نفسه، صفحة 32)، ومن هنا، يمثل البحر لدى البطل مصدر رزق، وحياة، ووجود، فهو كما يصفه " ليس أزرق بل هو أسمر بلون الخبز. أجل، إنه أسمر بلون الخبز، والسبب في ذلك كله هو أن الخبز الذي تنتزعه انتزاعا موجود في البحر ليس إلا." (نفسه، صفحة 10).

ولأن البحر ليس بالعالم السهل، فهو يتطلب قدرا من القوة والصلابة، وروح المغامرة، فقد ارتبطت دلالاته بالصراع من أجل البقاء. فقد كانت بدايات دحمان معه محاطة بصعوبات جمّة، كيف لا؟ وهو يأتي عالم البحر، طفلا صغيرا يعاني اليُتم، وتعوزه الخبرة والتّجربة. لا يمتلك إلاَّ إرادته ورغبته في تحقيق وجوده، "كنت ماتزال صغير السن، والشَّعر لم ينبت في أطراف وجهك. وما كان البحر عالما سهلا، كما تعرف. الصّراع فيه على أشده، ذلك لأن انتزاع العيش منه أمر بالغ الصعوبة. فهؤلاء إيطاليون وأولئك إسبان وآخرون جزائريون مثلك. وكل واحد منهم يريد افتكاك نصيبه من البحر عنْوة أو عن طواعية منه." (نفسه، صفحة 36).

دفعت حدَّةُ الصراع بين هذه الفئات البطَلَ دحمان، إلى طاولة القمار، هدفه الوحيد كسب بعض المال لتأمين ثمن زورق، رغب في شرائه، ليكون مصدرا لكسب لقمة العيش، ومما يورده السارد حول هذ الحادثة " كان الجزائريون في حالة حرب ومن ثم كان كل شيء مقبولا في تلك الظروف...صعب عليك في البداية أن تنزلق وسط المقامرين وقطاع الطرق لم تكن في أنظارهم إلا طفلا غرا في حاجة إل علقة

ساخنة، وما درى واحد منهم ما كان يجري في دماغك ولا هو تصور ما تنطوي عليه من مشروع. أجل خويا دحمان. مشروع امتلاك زورق تخدم به نفسك ومستقبلك" (نفسه، صفحة 38).

ويذكِّر التجاء السارد إلى هذه الوسيلة اللاأخلاقية بأبطال الرواية الوجودية لدى كامي الذين يسعون إلى تحقيق وجودهم، ولوكان ذلك بطريقة غير أخلاقية، لا تنسجم وقيم المجتمع الذي ينتمون إليه. وهذه الدلالة الوجودية لا تجسد في جوهرها أزمة دحمان مع الحياة، ومع البحر، وإنّما تنسحب للدلالة على صراع الحياة واتجاهاتها، وتعبّر بكل وضوح عن تداخل العلاقات الإنسانية وتشابكها.

ويتخذ النّزوع الوجودي للرواية دلالات أخرى تتصل بالصراع من أجل البقاء، وتحقيق الكيان في هذا الفضاء الممتد المنفتح، ولا يتأتى ذلك إلا بالمواجهة؛ مواجهة البحر، وتحدي غدره من جهة. ومواجهة غطرسة البّحارة ورجال الفتوّة من المهربين من جهة أخرى.

ولأن البحر هو البحر، يظل شامخا قويا، لا يرحم الضعفاء. كان لا بد لهذا الصبي المغامر ابن الخامسة عشر سنة، من مُعين يحرص على تلقينه كيفية ركوب البّحر وفنون التّعامل مع أمواجه العاتية، ويعوّده التّحدي والصبر في مواجهة أخطاره "أختك حنيفة... نصحتك باستصحاب من يساندك، ويعلمك فنون الصيد...عمي أحمد الماهر... مع عمي أحمد هذا تعلمت كيف تتعامل مع المجاذيف حين يتحتم عليك استخدامها بدلا من المحرك، تعلمت كيف تربط زورقك لكي لا ينفلت، ويرتطم برصيف المرسى...كيف تلقي بشبكتك في البحر في أي جهة، وفي أية ساعة من الليل والنهار..." (نفسه، صفحة 46-47) ويردف السارد "تعلمت منه في تلك اللحظات الرهيبة كيف تحني رأسك أمام العواصف لكي تخرج سالما منها." (نفسه، صفحة 48) ومثلما يتطلب البحر عامل القوة التي تمثل أساس البقاء على وجه البسيطة، فإنه يتطلب قدرا من الحكمة والتصرف بعقلانية ولعلها الحكمة الأهم التي استفادها السارد من البحار أحمد الماهر. وبذلك تتأسس العلاقة بالبحر في الرواية على ممارسة الإنسان، وخبرته العملية في مجال الصيد والملاحة البحرية.

تشربت شخصية البطل صفات المكان، واتَّسمت بخصائصه "كنت بلغت ثمانية عشر عاما، قامتك طالت، وكتفاك ازداد عرضا، وتمنى كل واحد أن يعمل معك في البحر" (نفسه، صفحة 49) والروائي هنا يخص بطله بصفات فيزيولوجية ومعنوية مستمدة من المكان. أبرزها: القوة الجسدية (الأكتاف العريضة،) الشجاعة والعنفوان والرغبة في المجازفة والمغامرة، والعناد والمواجهة. فالبحارة عموما لهم "سمات تحددت مع البحر، ولهم سلوكيات تحددت بالبحر ولهم أساطير، ولهم حكايات ورؤاهم المرتبطة بالبحر الواسع والسفينة الضيقة." (المحادين، صفحة 227) ومن صفات البطل الكرم والبِرّ والحنو، فقد كان يجود على جيرانه بما كان يجود به البحر عليه، "جيرانك يا خويا دحمان كان لهم نصيبهم من السمك دائما وأبدا. هذا قمرون وبونيط، وهذه سيبيا، وذاك مافرون. الأمر رهن بما يجيء به البحر" (نفسه، نفس الصفحة) وتحمل بعض الشخصيات الأخرى التي تشترك مع البطل في الارتباط بالبحر مثل هذه الصفات والطباع، ولكن بدرجات متفاوتة، ومن الشخصيات التي يحكي عنها السارد، شخصية عمي أحمد أو رجل المهمات الصعبة كما يسميه، وهو من علم دحمان كثيرا من الدروس المتعلقة بالتعامل مع البحر: "كان رجل الشدائد حقا. لقد تعلم كيف يجابه سطوة البحر في الدردنيل وفي جزر اليونان. ووجد نفسه مرات ومرات في وضعية مماثلة في تلك الجهة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط. (نفسه، صفحة 48-49) فالحياة المشوبة بالمخاطر في عرض البحر، جعلت البحّار سيدا مغامرا ذا بأس شديد. يشبه البحر. يمتلك زمام أمره. وعن أخلاق البحارة، يحكي

البطل عن سعيد المبالافري أحد خصومه في البحر، ويسترجع العراك الذي نشب بينهما بالقرب من منارة الميناء، وكيف عمد إلى إسعافه بعدما أغمي عليه " هجمْتَ عليه... كنت أشبه بالريشة في الهواء، تقفز كما تشاء، وكان خصمك يكبرك سنا...كان فحلا ومازال فحلا ووجد في مواجهته فحلا آخر... هو الآخر مجنون بالبحر، مسكون به، وفي حاجة ماسة إلى أن يصابحه، ويماسيه وإلا فقدت الحياة ذوقها (نفسه، صفحة 51-52). ولا تتصل دلالات البحر بالذات الطامحة إلى تحقيق وجودها، فحسب، وإنّما تتجاوز ذلك للتعبير عن تاريخ الذّات الجمعية، لما للبّحر من قدرة على المزج بين الماضي والحاضر أي بين الذاتي الخاص والموضوعي العام. تجعل البحر يكتسب أبعادا تاريخية. وتعزى الدلالة التاريخية لفضاء البحر إلى تجذر الرواية في قلب الواقع التاريخي، تأملا ومساءلة. ومحاولتها نبش الماضي، للكشف عن ملابساته وصراعاته، التي لا تزال تلقي بظلالها على المشهد السياسي الجزائري الراهن، وتنخر الذاكرة التاريخية الجمعية للذات الجزائرية، حين يتصل خطاب البحر بموضوع الحرية والنزوع إلى مقاومة المستعمر، ومواجهته، ويقف نضال البطل دحمان وأبناء القصبة، موازيا للتعبير عن نضال الشعب الجزائري المرير من أجل الحرية والاستقلال. فمن يعشق البحر . لا محالة . يعشق الثورة والحرية، وما البحر إلا رمزا شفيفا للحرية، وهذا ما يصرح به السارد" ازددت حبا للبحر وعشقا له، لأنه يرمز إلى الحرية، بل هو الحرية نفسها. حقا، عندما تجد نفسك على متن باخرة، تشعر بالحرية الحقيقية، وتلمسها لمسا" (نفسه، صفحة 78).

يسترجع البطل زمن الثورة التحريرية، وكيف ضُيّق عليه المستعمر الفرنسي الخناق، وأصبح هدفا لأعوانه، نتيجة مشاركته في النّضال، ومناصرته الثّورة ودعمها بالسلاح، فعندما أدرك أن وطنه محتل وشعبه مضطهد مسلوب الحرية والكرامة، أحس بواجبه اتجاه وطنه وشعبه "صَعُبَ البّحر عليك في تلك الأيام، خاصة أيام معركة الجزائر. كيف تتحرك يا خويا دحمان؟ لقد اعتبروك إرهابيا خطيرا. زورقك ينظرون إليه على أنه سلاح وشاشيتك الصوفية هذه يعتبرونها قنبلة يدوية، بل أنت نفسك يرون فيك نارا تأكل الأخضر واليابس (نفسه، صفحة 68-69). ويورد في مقطع آخر يصف عملية اغتيال الناشطين في الثورة واستهدافهم: "أنى لك أن تعود إلى ماكنت عليه من عمل وهناء في البحر على متن زورقك، وهم يصطادون بمسدساتهم وبنادقهم كل إنسان يضع قدميه في حي من أحيائهم" (نفسه، صفحة 90).

كما يسلط (السارد) الضوء على نضال الصيادين، وكيف تمت تصفية كثير منهم من قبل المنظمة السرية" الحوات رابح قتل في الصباح الباكر عند أطراف السوق المركزية. رجل طاعن في السن، ومع ذلك كان يسعى من أجل نيل رزقه، فاجأوه بعد أن ترصدوه أياما وأياما. لو كانت له بقية من قوة لجاهد فيهم... الموت غدرا يا خويا دحمان أمر يصعب احتمله" (نفسه، صفحة 91).

وفي مقاطع سردية أخرى، يبرز السارد نضال الشباب الجزائري على الشريط الساحلي، فقد كانوا كما يورد: "ينزلون إلى سواحل سيدي عبد الرحمن، ويصطادون أوربيا أو اثنين على سبيل الانتقام...كانوا يأخذون بثأر الجزائريين الذين يسقطون يوميا في مختلف المدن والأرباض" (نفسه، صفحة 89).

ويسترجع السارد تحولات ما بعد الاستقلال وما صاحبها من خيبات وانكسارات وشعارات وهمية، أثرت سلبا على المرسى وأعاقت حركة الصيادين وفي مقدمتهم البطل الذي لم يشفع له نضاله المرير وتضحياته الجسام التي قدمها، عند اشتعال الثورة المسلحة. لقد أصبح في

زمن الحرية والاستقلال، يكابد عناء الاستبداد والتّعسف والسجن والبيروقراطية، وفي هذا الصدد تتراءى الدلالة الإيديولوجية للبحر، إذ تضعنا الرواية أمام بطل، يشعر بالخيبة والإحباط، ويعاني الضّياع والاغتراب. يرى العالم النّموذجي الذي رسمه وأبناء وطنه من الثوار والمناضلين البسطاء، مجرد أضغاث أحلام، تنهار أمام ناظريه، بسبب التراجع عن مبادئ الثورة المجيدة، والانحراف عن مسارها، فقد جاءت التحولات الاشتراكية، وأخذ الشعب في التغني بها،" لكنك أنت لم تضع يدك على هذه الاشتراكية المزعومة، وتكاثر الانتهازيون. وضعوا ثقلهم على كل شيء باسم الثورة والاشتراكية...خشيت على زورقك من أن تطاله يد الاشتراكية الأخطبوطية. خشيت أن يصدر أمرا من عل لكي تتقاسم زورقك مع إنسان آخر" (نفسه، صفحة 114-115).

وطالت التحولات السياسية في زمن الاستقلال فضاء البحر وأثرت سلبا على عمل الصيادين، وعمال الميناء، فقد اتخذت حياة البحر . كما يقول السارد . وجهة أخرى: "أدخل عليه الإخوة الفوقانيين حكاية الاشتراكية هذه وعزفوا نغمتها في أرجائه. عمّال الأرصفة، أولئك الذين يفرّغون السفينة تلو السفينة من سلعها، ويكدّون ليلا ونهارا، فرضت عليهم هذه النغمة الاشتراكية، وهاهم يصيرون أجراء شهريين خلافا لكل الأعراف والتقاليد المعمول بها في موانئ العالم أجمع" (نفسه، نفس الصفحة) ويكشف السارد عن شتى الممارسات المنجرّة عن سياسة الاشتراكية، وبخاصة تلك التي مست المرسى، وأثّرت سلبا على نشاط البّحارة: "ها هي قوانينهم تصدر تباعا فتزعجك، وتزعج غيرك من الصيادين أصحاب القوارب والزوارق الصغيرة. عليك بهذه الورقة. أضف إليها تلك الوثيقة... سجّل نفسك في المكتب الفلاني قدم تصريحا سنويا بما تكسبه من صيد البحر كل عام" (نفسه، صفحة 116). وتعزى كل هذه المضايقات في نظر السارد إلى جهل القائمين على تطبيق هذا النظام بالبحر وبخصوصيته، وبمن يعمل ويعيش عليه، فالبحر كما يذهب "ليس مصنعا تستخرج منه كذا وكذا من العلب والصناديق والمسامير" (نفسه، صفحة 116-117).

وإذا كانت أحداث الرواية قد انطلقت من فضاء البحر، فإنها تنتهي في الميناء بعودة السفينة التي تحمل ابن السارد. متوجا بشهادة علمية، تشكل ثمرة لجهوده، وجهود والده الذي ضحى من أجل مستقبل زاهر لابنه " خويا دحمان جدير بأن يعرف بعض الراحة الآن انتهز هذه الفرصة، لأنك ستضطر غدا إلى تلبية طلباته. تأكد من أنه سيقول لك: هيا، يا بابا نقوم بدورة في البحر عسانا نصطاد بعض حبات من البونيط" (نفسه، صفحة 158-159). ومن خلال هذه النهاية التي اختارها الروائ لتداعيات بطله، نلمح بصيص أمل في غد جزائري مشرق، ينهض على سواعد شباب الاستقلال المتمسك بقيّمه وثوابته الوطنية، والمنفتح في الوقت ذاته على ثقافة الآخر، وحضارته.

4. خاتمة

أفضت بنا مقاربة الحضور الدّينامي المكثّف لفضاء البحر في رواية خويا دحمان إلى جملة من النتائج، نوجزها في النّقاط الآتية:

– يمثل البحر مادة استلهام خصبة، تغذي المتخيل الروائي، وتمده بما لا حصر له من الموضوعات والرموز والمعطيات الدالة كالماء والأمواج والأنواء والأشرعة ووسائل الانتقال والأصوات والألوان...وتشكّل في مجملها كونا دلاليا عمد السارد إلى تفجيره، وربطه بتداعيات البطل، أي بالدلالة الكلية للنص الروائي.

– يشكل فضاء البحر في رواية خويا دحمان بؤرة إشعاع دلالي مكثّف، تمنح السرد طاقات فنية وتخييلية لا حدود لها. ومن أبرز الدلالات التي يضطلع بها هذا الفضاء، نجد: الدلالة الوجودية والتّاريخية والسياسية والأيديولوجية والاجتماعية والنّفسية والصّوفية الوجدانية التي يجسّدها تماهي السّارد والبحر والفناء فيه...

– يرمي التبئير على البحر في الرواية موضوع الدراسة، إلى مساءلة الذات والذاكرة التاريخية، احتجاجا على ما يطبع الرّاهن الوطني من خيبة وتراجع عن قيم الثورة المجيدة كالحرية والعدالة ونبذ التبعية للآخر، فالبحر يؤجج صراعا قويا داخل البطل، تفصح عنه تداعياته واستيهاماته، التي لا تهدأ وتستقر إلاّ نهاية الرواية.

– تفتحُ الرواية من خلال شخصية الابن الذي قطع البحر إلى العالم الآخر. وعاد إلى منبته الأصلي . نافذة أمل، تستشرف من خلالها مستقبل الوطن والأمة الجزائرية. وهو مستقبل مضيء، يبنى بسواعد شباب، ينفتح على الآخر، ويستفيد منه، ولكنه يرفض الاستلاب، ويعتز بمقومات الشخصية الجزائرية الأصيلة.

المصادر والمراجع

1. طرابيشي جورج، (1995)، الروائي وبطله (مقارنة اللاشعور في الرواية العربية) دار الأديب، بيروت، ط1.
2. حسين حسين خالد، (2000)، المكان في الرواية الجديدة (الخطاب الروائي للخراط أنموذجا) كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة، ط1.
3. حسين حسين خالد، (2008)، شؤون العلامة (من التشفير إلى التأويل) دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1.
4. قاسم سيزا، (1985)، بناء الرواية (دراسة في روايات نجيب محفوظ)، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت.
5. المحادين عبد الحميد، جدلية المكان والزمن والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
6. أشهبون عبد الملك، (2013)، البداية والنهاية في الرواية العربية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1.
7. بقطاش مرزاق، خويا دحمان، دار القصبة للنشر، حيدرة، الجزائر، (د، ت).
8. أحمد مرشد، المكان والمنظور الفني في روايات عبد الرحمن منيف، دار القلم، (د، ت).
9. أحمد مرشد، (2003)، أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، دار الوفاء، لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1.
10. الكيلاني مصطفى، (2009)، الرواية والتأويل (سردية المعنى في الرواية العربية)، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط،1.